## المقطع الثاني [ ٦ - ١١ ]

قال الله - تعالى -: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٦ إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ٩ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١١﴾ [الملك: ٦-١١].

هذا المقطع موعظة من مواعظ القرآن، يُبيِّن بعض صفات جهنم، ومشهدا من مشاهد الحوار بين خزنة النار وأهلها، ونَدَمَ هؤلاء المُعَذَّبين حين لا ينفع الندم.

### الوقفة الأولى: النار دار العذاب.

النار دار أعدها اللهُ لعذاب من كَفَر به وعصاه.

وتعددت أسماؤها في القرآن، وذُكِر في هذا المقطع اسمان:

١- **جهنم.**

وقد ورد في القرآن في اثنين وسبعين موضعا. وهو اسم يبُث الرعب والفزع في النفس، وأصل هذه الكلمة في اللغة: البئر البعيدة القَعْر(١)، وسميت النار بها لبُعد قعرها.

عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً (صَوْتُ السُّقُوطِ)، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**تَدْرُونَ ما هذَا؟**» قالَ: قُلْنا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قالَ: «**هَذا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الآنَ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِها**»(٢).

---

(١) ينظر: «النهاية في غريب الحديث» (١/ ٣٢٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٤٤).

٢- السعير.

ورد في القرآن ثماني مرات مُعَرَّفًا - منها ثلاث في هذه السورة -، وثماني مرات مُنَكَّرًا.

وأصل هذه المادة يدل على الاشتعال والاتقاد والارتفاع[(١)]، فهي فَعِيل بمعنى مَفْعُول.

وهو يفيد شدة اشتعال النار واتقادها وارتفاع لهبها، وهذا الاشتعال دائم لا يخبو ولا ينطفئ.

فهذه النار قعرها بعيد، وحرها شديد.

لها سبعة أبواب، وهي دركات بعضها أسفل بعض، كما أن الجنة درجات بعضها فوق بعض.

قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

وقد تكاثرت النصوص في وصف النار وعذابها.

**الوقفة الثانية: مشهد من فظاعة جهنم.**

قال الله - تعالى -: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾.

أصوات مرعبة، ونار ملتهبة متغَيِّظة أشد الغيظ على من فيها.

يبيِّن اللهُ - تعالى - أن هذه النار إذا أُلقي فيها الكُفار سمعوا لها صوتا عاليا فظيعا منكرا، وهذه النار تغلي من شدة تلهبها وتوقدها.

توشك جهنم أن تتقطع وتنفصل بعضُ أجزائها عن بعض؛ لِشدة غيظها على أهلها - والغيظُ شدة الغضب -، كما قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢].

وأفاد قولُه تعالى: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا﴾، وقولُه بعدها: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ﴾: أنهم يُلْقَون فيها إلقاء، ولا يدخلون دخول كرامة، وهم حين الإلقاء يُدفعون بشدة ومهانة إلى جهنم دفعا عنيفا، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣].

نار جهنم شررُها كالقَصْر، الشرارة الواحدة كالقصر المشيد المرتفع.

طعامهم: الزَّقُّوم والغِسْلِين والضَّرِيع. وشرابهم: الحميم والغَسَّاق والصديد. وثيابهم من نار.

---

(١) ينظر: «معجم مقاييس اللغة» (٣/ ٧٥).

## الوقفة الثالثة: حوار الحسرة والندم.

هذا حوار بين خزنة جهنم ومن يُلقى فيها من الكافرين.

قال الله – تعالى –: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾، أي: كلما أُلقِي في جهنم جماعة من الكافرين، قال لهم خزنتها من الملائكة مُوَبِّخِين: ألم يأتكم في الدنيا نذير يُنذِرُكم عذاب الله – تعالى –؟!

قال الكافرون لخزنة جهنم: بلى، قد جاءنا نذيرٌ يُنذِرُنا عذابَ الله، ولكِنَّا كذَّبْنا وقُلْنا للمُنذِرين: ما نَزَّل اللهُ على أحد من الخلق أيَّ شيءٍ من الوحي!

وقلنا – أيضا – لهؤلاء المُنذِرين: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾، أي: ما أنتم إلا في ذهاب بعيد عن الحقِّ والصواب!

ثم رجَعُوا على أنفسهم، وقالوا في حسرة وندم: لو كُنَّا في الدنيا نَسمع سَمعا يُنتفَع به، أو نَعقِل عقلا يُنتفع به، ما كنا اليوم في عِداد أهل النار، ومن جملة المُخَلَّدِين في عذابها.

فاعترفوا بذَنبِهم الذي استَوجَب لهم الخلودَ في السعير، وهو الكفر وتكذيب الرسل، ﴿فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، أي: فبُعْدا لأهل النار المُلازِمين لها، مِن رحمة الله – تعالى –.

وذكَر الله نظيرَ هذا الحوار في سورة الزمر: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

وفي الآية فضيلة السمع والعقل؛ فهما أصلُ العِلم وبهما يُنال؛ فإنهم قالوا: ﴿لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

وقولُهم: ﴿لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، وقد كانوا يَسمعون، ولكن لا يَسمعون ما ينفعهم في الآخرة حين أعرضوا عن تَلقِّي دعوة الرسل. وكانوا يعقلون، ولكن لا يعقلون ما ينفعهم في الآخرة، حين تركوا التَّدبُّر فيما جاء به الرسل من الآيات والبينات، كما قال الله عنهم: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡ﴾ [البقرة: ٧].

وهذا يؤخذ منه فوائد:

١- أن الشيء يُعتبر بثمرته ومنفعته. كما في قول الله - تعالى -: ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨]، فلمَّا ذهبت عنهم منفعة الكلام ومنفعة الاستماع ومنفعة البصر، نُفِيت عنهم، مع أن أصل الحواس موجود: يتكلمون ويسمعون ويبصرون، لكن نُفِيت عنهم هذه الحواس مع وجودها؛ لانتفاء المنفعة الحقيقية منها.

٢- أن أهل النار يسمعون ويتكلمون ويدركون. وجاء هذا في آيات أخرى، كقول الله عنهم: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وهذا مما تُخالِف فيه نارُ الآخرة نارَ الدنيا، فنار الدنيا مَن دخلها تعطَّل إدراكُه.

٣- أن الأدلة نوعان: سمعية وعقلية؛ لقول الله - تعالى -: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ﴾، وفيه تقديم الأدلة السمعية على العقلية.

٤- الانقياد لشرع الله عاصم من عذاب النار.

٥- عذاب أهل النار يشمل العذاب الجسدي والنفسي، من الحسرات والندم. ولهذا نظائر في القرآن، منها قول الله - تعالى -: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا قال: «إنَّ أَهْلَ النَّارِ لَيَدْعُونَ مالِكًا فَلا يُجِيبُهُمْ أَرْبَعِينَ عامًا، ثُمَّ يَقُولُ: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾، ثُمَّ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ فَيَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧]، فَلا يُجِيبُهُمْ مِثْلَ الدُّنْيا، ثُمَّ يَقُولُ: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، ثُمَّ يَأْيَسُ الْقَوْمُ، فَما هُوَ إلَّا الزَّفِيرُ وَالشَّهِيقُ»(١).

---

(١) **صحيح:** أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤١٢٢)، والحاكم في «المستدرك» (٨٧٧٠)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٤١٧١)، وصححه الألباني.

## المقطع الثالث [١٢ - ١٥]

قال اللهُ - تعالى -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٢-١٥].

### الوقفة الأولى: مقام المراقبة.

إن الذين يخافُون الله وهم لم يَرَوه في الدنيا، ولم يَرَوا عذابه، فيُطيعونه ويتركون معصيته حتى في خلواتهم حيث لا يراهم الناس: لهم مَغفِرة من الله لذنوبهم. والمغفرة: التجاوز عن الذنب مع ستره، فحصلت لهم السلامة من النار، ولهم مع ذلك: أجر كبير وثوابٌ عَظيمٌ، وهو نعيم الجنة، ورؤية الله - تعالى -، فزال المَرْهُوب، وحصل المطلوب. ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣١-٣٣].

والخشية أخص من الخوف، فهي خوف مقرون بمعرفة وتعظيم. وأعرف الناس بالله هم العلماء، قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، فخشية الله ثمرة العلم والإيمان، ولذا كان أرفعُ الناس منزلة فيها محمدا ﷺ، الذي قال عن نفسه: «**فَوَاللهِ إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ باللهِ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً**»(١)، ثم الأنبياء عليهم السلام: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وكان من دعاء النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الغَيْبِ والشَّهادَةِ**»(٢).

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٦١٠١)، ومسلم (٢٣٥٦).

(٢) **صحيح**: أخرجه النسائي في «السنن» (١٣٠٦)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٩٣٤٨)، وصححه الألباني.

الخوف من الله وخشيتُه في الخلوات والسر؛ له شأن عند رب العالمين، ومن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «رَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خالِيًا فَفاضَتْ عَيْناهُ»(١).

خشية الله في الخلوة دليل على قوة إيمان، وطهارة قلب، وصفاء نفس.

إذا ما خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا، فَلا تَقُلْ     خَلَوْتُ، وَلَكِنْ قُلْ: عَلَيَّ رَقِيْبُ
وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ يَغْفُلُ ساعَةً     وَلا أَنَّ ما تُخْفِي عَلَيْهِ يَغِيْبُ(٢)

من كان يصارع الشهواتِ وذنوبَ الخلوات، فدواؤه الخوف من الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، كما حفظ الله يوسف عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ من فتنة النساء بخوفه من ربه، فقال: ﴿**مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ**﴾ [يوسف: ٢٣].

قال إبراهيم بن سفيان: «إذا سكن الخوفُ القلبَ أحرق مواضع الشهوات وطَرَد الدنيا»(٣).

ومن آثار ذنوب الخلوات وآفاتها: ثِقَلُ الطاعات، والكسلُ عن الفرائض والنوافل، وضَعْف حلاوة الإيمان، وذَهابُ حلاوة المناجاة.

قال ابن رجب رَحِمَهُٱللَّهُ: «وفي الجملة: فتقوى الله في السر هو علامة كمال الإيمان، وله تأثير عظيم في إلقاء الله لصاحبه الثناءَ في قلوب المؤمنين»(٤).

ثم قال الله - تعالى -: ﴿**وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ**﴾، أي: أخفُوا كلامكم - أيها الناس - أو أظهِروه؛ فكلا الأمرين

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٦٠).

(٢) هذان البيتان - على شهرتها - اختُلِف في قائلها كثيرا، والذي في «البيان والتبين»، للجاحظ (٣/ ١٣٣)، و«عيون الأخبار»، لابن قتيبة (٢/٣٥٠)، أنها لعبد الله بن أيوب التيمي من أبيات ليس منها البيت الثاني.

(٣) «شعب الإيمان» (١/ ٥١٣).

(٤) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤١٠).

سواء عند الله، فلا يَخفى عليه شيء مما تسرونه أو تجهرون به من أقوال، كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠].

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، أي: إن الله ذو علم بالغ تامٍّ بما في قلوب العباد من العقائد والنيات والأسرار والخواطر التي لم يُتكلَّم بها، فما تكلَّم به الإنسان سرًّا أو نطق به جهرًا أَولى وأحرى أن يعلمه اللهُ – سبحانه –، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾، هذا دليل عقلي على كمال علمِه – تعالى – بالسر والجهر، وهو: أنه الخالق، فكيف يَخفى عليه – سبحانَه – ما في الصدور من أسرار هو خلَقها؟! وهو العالِم بدقائق الأشياء، فيدبرها ويسوقها لعباده برفق وخفاء من حيث لا يشعرون؛ فهو سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ عالمٌ بما بَثَّه في القلوب، وهو العالِم ببواطن الأشياء وخباياها، فلا تخفى عليه خافية.

### الوقفة الثانية: تذليل الأرض.

لـمَّا قال اللهُ – تعالى – في الآية السابقة: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾، ذكر مثالا على هذا اللطف بعباده، فقال – سبحانه –: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾، أي: هو الذي جَعَل لكم الأرضَ مُذَلَّلةً مُوطَّأَةً كالجَمَل الذَّلُول، الذي كيفما يُقاد يَنقاد، بحيثُ تتمكنون من الانتفاع بهذه الأرض، بالسكن والمشي والتنقل وغير ذلك، ولم يجعلها مُسْتَصعبة ومُمتَنعة على من أراد ذلك منها، وقد جعلها الله – تعالى – أيضا: بساطا وفراشا ومهادا وقرارا.

وقولُه – تعالى –: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾، معناه: فامشُوا في جوانبِها ونواحيها، وسافِروا حيث شئتُم من أقطارها لطلب الرزق والمكاسب.

وقولُه – سبحانه –: ﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾، أي: وكُلُوا من رزق الله الحلال الذي أودَعَه فيها، وأقدركم على إخراجه منها.

وقولُه – تعالى –: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾، أي: وإلى الله وحده لا إلى غيره المرجعُ بعد موتكم، فتبعثون من قبوركم يوم القيامة للجزاء على أعمالكم.

وفي الآية إيماء إلى طلب الرزق والمكاسب.

وقد قال الله - عز وجل -: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وقال - سبحانه -: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾ [النبأ: ١١]، أي: سخَّره لطلب المعاش، وقال - تعالى -: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

وامتن الله على عباده بتنويع المعايش وأسباب الرزق في هذه الأرض، فقال - جل وعلا -: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ١٩ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ [الحجر: ١٩-٢٠]، أي: وجعلنا لكم فيها ما به تعيشون من الحَرْث، ومن الماشية، ومن أنواع المكاسب وغيرها.

بل حتى في الحج - وهو موسم عباده - أُبيح التكسُّبُ وطلب الرزق والربحِ بالتجارة في الموسم، قال الله - تعالى -: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨].

وعن رافع بن خديج رَضِوَٱللَّهُعَنْهُ قال: قِيلَ: يا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الْكَسْبِ أَطْيَبُ؟ قَالَ: «**عَمَلُ الرَّجُلِ بِيَدِهِ، وَكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٍ**»(١).

وفي هذا المال أبواب خير كثيرة إذا أُخِذ من حلال وصُرف في وجوه الخير: من نفقة بالمعروف، وصدقة وإحسان وإكرام، فقد سمى الله المالَ خيرا في قوله - تعالى -: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]، وفي قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد في «المسند» (١٧٢٦٥)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٧٩١٨)، وحسنه محققو المسند.

الأنبياء صفوة البشر، وأفضل الناس، وقد كانوا أصحاب كسب وعمل مع تمام التوكل على الله – تعالى –. فهذا نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ امتهن النجارة، وعَمِل في صناعة الفُلك، وداود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان حدادا، وزكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان نجارا، وعَمِل يوسفُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ واليًا على خزائن مصر، واشتغل موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في رعي الماشية عشر سنين. وأما نبيُّنا ﷺ فقد كان يشتغل بالتجارة في أول الأمر، وسافر إلى الشام في تجارة خديجة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وعَمِل – أيضا – في رعي الغنم.

وهذا الخطاب يشمل الأمّة – أيضا –: بحَثِّها على السعي والعمل والجِدِّ، والمشي في مناكب الأرض مِن كُلِّ جانب؛ لتكون لها الريادة، ويتحقق لها الغنى والاستغناء عن غيرها.

والأمة اليوم قد فرَّطَت في دينها ودنياها، وصارت الريادة والتقدم للأمم الكافرة في الغرب والشرق.

وفي ختم الآية بقول الله – تعالى –: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾، إشارة إلى أمرين:

**الأول**: أنه مع السعي في جوانب الأرض وطلب الرزق، إلا أن هذا لا يَطْغى على القلب، فيركن إلى الدنيا، ويغفل عن الآخرة، بل عليه أن يعرف قدر هذه وتلك. الدنيا ممر والآخرة مقر، أنت هنا عابر سبيل سرعان ما تغادر إلى دار الخلود والبقاء، فلا تغُرَّنَّك الحياة الدنيا وزخرفها.

**الثاني**: التحذير في الكسب وطلب الرزق أن تسلك الطرق المحرمة، فالمال فتنة عظيمة للنفس، وكم سقط لأجله من أناس كانوا من الصالحين. فاحذر؛ فإنك محاسب وصائر إلى الله في يوم الأهوال والنشور.